الفصل الرابع

مسجد الحاكم الجامع

١ — تاريخ مسجد الحاكم وتخطيطه.

٢ — عمارة المسجد الفاطمية.

٣ — زخرفة المسجد العتيقة.

obeikandl.com

obeikandl.com

الفصل الرابع

مسجد الحاكم الجامع

١

تاريخ مسجد الحاكم وتخطيطه

رغب الخليفة العزيز بالله بن المعز فى إنشاء مسجد خارج أسوار القاهرة التى أقامها جوهر وملاصقا لها. وبدأ البناء فى هذا المسجد سنة ٣٨٠هـ / ٩٩٠م، ولكنه لم يتم فى عهد هذا الخليفة، بالرغم من أنه أدى صلاة الجمعة به فى شهر رمضان من سنة ٣٨١هـ / نوفمبر ٩٩١م. وشرع «ولده، الحاكم بأمر الله» فى سنة ٣٩٣هـ / ١٠٠٣م فى إتمام البناء، وأكمله فى سنة ٤٠٣هـ / ١٠١٢م ولهذا سمى هذا المسجد باسمه[١].

وذكر المقريزى أنه «تم بناء الجامع الجديد بباب الفتوح. وعلق على ستائر أبوابه ستور ديبقية عملت له، وعلق فيه تنانير فضة عدتها أربع، وكثير من قناديل فضة، وفرش جميعه بالحصر التى عملت له، ونصب فيه المنبر، وتكامل فرشه وتعليقه... وصلى فيه الحاكم بأمر الله بالناس صلاة الجمعة «سادس شهر رمضان سنة ثلاث وأربعمائة / ٢١ مارس ١٠١٣م»، وهى أول صلاة أقيمت فيه بعد فراغه»[٢]. وبالمسجد نص منقوش بالخط الكوفى فيه «مما أمر بعمله عبد الله و (وليه المنصور) أبو على الإمام الحاكم بأمر الله أمير المؤمنين صلوات الله وعلى آبائه المهديين فى شهر رجب سنة ثلاث وتسعين وثلثمائة»[٣].

ولما أقام بدر الجمالى الأسوار الجديدة للقاهرة، فى سنة ٤٨٥هـ / ١٠٩٢م، أصبح مسجد الحاكم داخل تلك الأسوار، والتصق الجدار الشرقى منه بها، فيما بين بابى الفتوح والنصر.

---

(١) انظر المقريزى، «الخطط»، جزء ثان، من صفحة ٢٢٧ إلى صفحة ٢٨٢.

(٢) انظر شرحه، صفحة ٢٧٧.

(٣) انظر صفحة ٤٥ من الجزء السادس من كتاب (كومب)، «مرجع الكتابات العربية».

والظاهر أن المسجد كان محتفظا بمظهره القديم، ثابت الأركان والعناصر، فى عهد صلاح الدين الأيوبى، حين أبطل هذا السلطان صلاة الجمعة من مسجد الأزهر، وقصرها داخل حدود القاهرة الفاطمية على مسجد الحاكم. ولم يشر أحد من المؤرخين إلى أعمال أجريت بهذا المسجد منذ إتمام بنائه وحتى سنة ٧٠٣هـ / ١٣٠٣م[١].

وقد تأثر المسجد من الزلزال الذى أصاب القاهرة فى سنة ٧٠٢هـ / ١٣٠٢م، «فإنه سقط كثير من البدنات التى فيه، وخرب أعالى المئذنتين وتشعثت سقوفه وجدرانه»[٢]، فانتدب السلطان الملك الناصر محمد «الأمير ركن الدين بيبرس الجاشنكير»، فنزل إلى المسجد «وكشف بنفسه، وأمر برم ما تهدم منه، وإعادة ما سقط من البدنات، فأعيدت وفى كل بدنة منها طاق، و أقام سقوف الجامع وبيضه حتى عاد جديدًا»[٣]. وبالمسجد نقش كتابى جاء فيه «وكان الفراغ فى شهر ذى الحجة سنة ثلاث وسبعمائة».

وجدد المسجد مرة ثانية فى عهد الملك الناصر حسن، فى سنة ٨٦٠هـ / ١٣٥٨م «وبيض مئذنتيه» شخص من الباعة يعرف بابن كرسون.. فى أعوام بضعة وثمانين وسبعمائة (حوالى ١٣٨٠م)[٤]. واستجد شخص آخر من الباعة مئذنة ثالثة، «وكملت فى سنة ٨٢٧هـ / ١٤٢٠م[٥]. وذكر أن نقيب الأشراف، السيد عمر مكرم جدد فى سنة ١٢٢٢هـ / ١٨٠٧م أربع بوائك من مؤخر مسجد الحاكم، وجعلها بيتا للصلاة، إذ إن بيت صلاة المسجد ومجنباته كانت حينذاك متهدمة، وكانت سقفه وأهية[٦]. وظل المسجد معظمه على هذه الحال حتى وقتنا هذا.

وقد استخدم مسجد الحاكم فى القرنين الثامن عشر والتاسع عشر لغير الغرض الذى شيد له، فاتخذ حامية إبان الحملة الفرنسية، ثم بعد ذلك مقرًّا لقوم من الشام، أقاموا فيه مغازل ومعامل لصناعة الزجاج ونسج الحرير. واستخدم فى سنة ١٨٨٠م متحفا لدار الآثار العربية.

---

(١) وذلك فيما عدا الإشارة إلى فسقية بناها الصاحب عبد الله بن على بن شكر فى وسط صحن المسجد، ثم أزالها القاضى تاج الدين ابن شكر فى سنة ٦٦٠هـ / ١٢٦١م، وفيما عدًا زيادة خارج حدود المسجد، كان قد أنشأها، فيما يقال، الظاهر على ابن الخليفة الحاكم. انظر المقريزى «الخطط»، جزء ثان، صفحة ٢٧٨.

(٢) انظر شرحه.

(٣) انظر شرحه.

(٤) انظر (على) مبارك، «الخطط التوفيقية»، جزء رابع، صفحة ٨٠.

(٥) انظر شرحه، صفحة ٨١.

(٦) انظر المرجع السابق، صفحة ٨١.

ثم أقيمت فيه مبان تضم مدرسة السلحدار الابتدائية. وأجرت مصلحة الآثار أخيرًا اصلاحات فى المسجد تناولت بعض جدرانه الخارجية وعددًا من دعامات بيت الصلاة وعقوده.

يظهر من الرسم التخطيطى لمسجد الحاكم، شكل (٧)، أن المسجد الفاطمى كان يشمل مستطيلاً طول جدار القبلة الخارجى فيه ١٢٠ مترًا، وطول كل من جداريه الشرقى والغربى ١١٣ مترًا، فهو ثانى مساجد القاهرة اتساعًا، بعد مسجد ابن طولون، وإن كان بيت الصلاة فى المسجدين يكادان يتساويان مساحة، إذ إن جوف بيت الصلاة فى مسجد الحاكم كان يمتد اثنين وثلاثين مترًا[١]. ويشمل هذا البيت خمسة أساكيب، تنقسم إلى سبع عشرة بلاطة، تفصلها صفوف من الدعامات ممتدة فى موازاة جدار القبلة، بكل صف منها ست عشرة دعامة. ويبلغ متوسط عرض الأسكوب خمسة أمتار، فيما عدًا أسكوب المحراب، فعرضه خمسة أمتار ونصف. ويبلغ متوسط عرض البلاطة، فيما بين الدعامات، أربعة أمتار ونصف المتر، فيما عدًا بلاطة المحراب فعرضها ستة أمتار[٢].

والدعامات التى تتخلل الأساكيب والبلاطات عريضة ضخمة، يبلغ متوسط طول كل منها مترين ونصف متر، ومتوسط عرضها نصف ذلك. وتحمل هذه الدعامات عقودًا ممتدة فى موازاة جدار القبلة، ولكن هذه العقود لا تجتاز بلاطة المحراب، فيما عدًا عقود أسكوب المحراب. وتحف ببلاطة المحراب من كل جانب بائكة من خمسة عقود قائمة على دعامات كذلك، تلتصق فى اتجاه متعارض بدعامات عقود الأساكيب، وتنتهى هذه العقود عن يمين هذه البلاطة، ثم يبدأ امتدادها من جديد عن يسارها، حتى تنتهى عند الجدار الشرقى.

ويتوسط جدار القبلة محراب تنتصب أمامه قبة، عند تقاطع أسكوب المحراب ببلاطته، وترتكز هذه القبة من ناحية على جدار القبلة، ومن النواحى الثلاث الأخرى، على عقود يرقى كل منها زوجين من الأعمدة، زوجان فى كل جانب، وجملة هذه الأعمدة ١٢ عمودًا. وكانت تنتصف على أسكوب المحراب قبتان أخريان، واحدة فى كل طرف من طرفيه.

---

(١) طول جدار القبلة الخارجى فى المسجد الطولونى ١١٨ مترًا ويمتد جوف بيت الصلاة فيه ٣٣ مترًا. انظر «مساجد القاهرة ومدارسها – المدخل»، للمؤلف.

(٢) يزداد عرض هذه البلاطة نصف متر فى نهايتها عند الصحن عن عرضها فى بدايتها عند المحراب ولهذا فإن حدودها ليست موازية تمامًا لحدود بقية البلاطات.

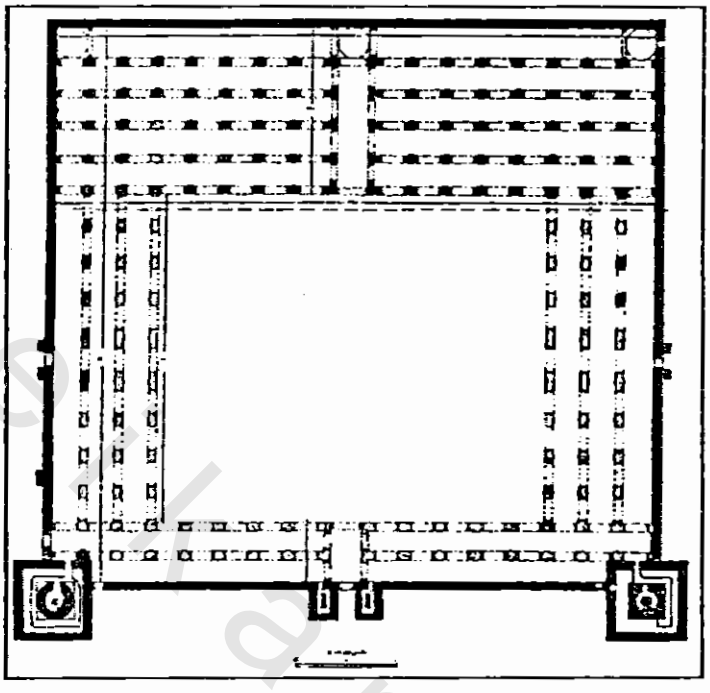

شكل (٧) – رسم تخطيطى لمسجد الحاكم الجامع (عن مصلحة الآثار)

وكان بيت الصلاة يطل على صحن فسيح يكوّن مستطيلاً طوله ٧٨ مترًا وعرضه ٦٦ مترًا، وكان يحف بهذا الصحن ثلاث مجنبات، بالمؤخر منها رواقان، بكل منهما سبعة عشر فاصلا[1]. وكان هذا المؤخر يطل على الصحن ببائكة من أحد عشر عقدًا، شبيهة بواجهة بيت الصلاة على الصحن. وكان بكل من المجنبتين الشرقية والغربية ثلاثة أروقة، وكانت كل منهما تطل على الصحن ببائكة من تسعة عقود، أى إنه كان بكل من هذه الأروقة تسعة فواصل.

وكانت جميع بوائك المسجد فى بيت الصلاة والمؤخر موازية لجدار القبلة، فيما عدا بائكتى بلاطة المحراب وبوائك المجنبتين الشرقية والغربية، فقد كانت تمتد فى اتجاه القبلة. وكان عدد الدعامات المنفردة داخل حدود المسجد ١٦٠ دعامة، وعدد الدعامات المتصلة بجدران

(١) أشار (على) مبارك فى صفحة ٨١ من الجزء الرابع من كتابه «الخطط التوفيقية»، إلى أن السيد عمر مكرم جدد «أربع بوائك» فى مؤخر المسجد، أى أربعة صفوف من الدعامات والعقود. وقد يفهم من هذه الإشارة أن مؤخر المسجد كان يشتمل على أربعة أروقة، غير أن آثار المبانى لا تدل على ذلك. ويظهر منها بوضوح أن المؤخر يشمل رواقين فحسب. كما تظهر هذه الحقيقة على صورة قديمة رسمت أيام الحملة الفرنسية ونشرت فى كتاب وصف مصر، ونقلها (كريسويل) فى صفحة ٧٩ من الجزء الأول من كتاب «العمارة الإسلامية فى مصر».

المسجد الداخلية، أربع عشرة دعامة، وهى الدعامات التى كانت ترتكز عليها، وتنتهى عندها، عقود بيت الصلاة والمؤخر.

ولمسجد الحاكم بوابة ضخمة فتحت فى منتصف جدار مؤخره، يحف بها من كل جانب برج عظيم يبرز ستة أمتار خارج هذا الجدار. وتبلغ المسافة طولاً بين طرفى البرجين أكثر من خمسة عشر مترًا. وكان للمسجد، على هذا الجدار نفسه، أربعة أبواب أخرى غير هذه البوابة، مازالت تشاهد آثار بابين منها، كما كان له بابان مفتوحان فى كل من واجهتيه الشرقية والغربية يؤدى أحدهما إلى وسط كل من المجنبتين، ويؤدى الثانى إلى طرف من طرفى الأسكوب الثالث فى بيت الصلاة.

وتنتصب فى المسجد مئذنتان ضخمتان تحتل كل منهما ركنا بارزًا من أركان الواجهة الشمالية، خارجًا عن مستوى جدار هذه الواجهة، وعن مستوى الجدارين الشرقى والغربى. وبكل من هاتين المئذنتين إزار منقوش بالخط الكوفى فيه آيات قرآنية، وسجل عليه اسم الحاكم بأمر الله، وكان التاريخ مسجلاً عليه كذلك[1]. ولكل من المئذنتين قاعدتان، قاعدة داخلية، وقاعدة خارجية، وكلا القاعدتين من عهد الحاكم. أما القاعدة الداخلية فى المئذنة الغربية، فهى عبارة عن مربع طول كل ضلع من أضلاعه سبعة أمتار ونصف، تعلو عليها المئذنة مضلعة مثمنة؛ وأما القاعدة الداخلية فى المئذنة الشمالية فهى مربعة كذلك، ولكن المئذنة تعلو عليها أسطوانية مستديرة، وقطر هذا المربع مثل قطر مربع قاعدة المئذنة الغربية، أى سبعة أمتار ونصف. ولكل من المئذنتين معطف مكعب يحيط بها، على هيئة برج ضخم فى ركن الواجهة يقوم على القاعدة المربعة الخارجية للمئذنة، وطول كل ضلع من أضلاعها سبعة عشر مترا تقريبًا[2].

---

(١) ورد فى إزار المئذنة الشمالية اسم الحاكم وشهر رجب، وسقطت السنة. ولكن التاريخ ورد كاملا فى النص المنقوش على المئذنة الغربية، إذ يقرأ فيه شهر رجب سنة ٣٩٣هـ.

(٢) لاشك فى أن بناء المئذنتين كان قد تم قبل سنة ٤٠١هـ / ١٠١٠م، وكانت زخارفهما قد كملت كذلك وأصبحت ظاهرة بارزة. وإنى أعتقد أنه خشى فى تلك السنة على المئذنتين من الخلل لارتفاعهما وضخامتهما، أو أنه حدث زلزال، فأمر الحاكم بإحاطتهما بهذين المعطفين. وذلك لأنه روعى أن تمتد من بناء المعطف عقود ودعامات تسند كلا من المئذنتين فى مواضع من ارتفاعهما. ولهذا السبب خفيت بعد ذلك الزخارف عن أعين الناظرين بعد أن كانت مكشوفة لهم. وليس من المعقول، فيما أعتقد، أن يعنى بزخرفة المئذنتين تلك العناية الفائقة ثم أنه كان من المرتقب إخفاؤها. وتفسير ذلك ما ذكرته من أن المعطفين قد بنيا بعد إتمام المئذنتين، ولم يكن بناؤهما مقدرًا فى تصميم بناء المسجد والمئذنتين، عند الشروع فى هذا البناء سنة ٣٨٠هـ / ٩٩٠م. ويذكر المقريزى أن الحاكم أمر بإضافة «أركان» إلى المئذنتين فى سنة ٤٠١هـ / ١٠١٠م. انظر المقريزى، «الخطط»، جزء ثان، صفحة ٢٧٧.

٢

عمارة المسجد الفاطمية

لم تتبق أجزاء كثيرة من المسجد العتيق، وفيما عدًا الجدران الخارجية وأبراج المآذن وبداناتها التى مازالت قائمة، فإن ما تبقى داخل المسجد من قديمه يقتصر على بلاطة المحراب وعقودها وقبتها، وبضع دعامات فى أساكيب بيت الصلاة، وقلة من العقود، وقسم من واجهة بيت الصلاة على الصحن. أما مؤخر المسجد فقد هدم بأكمله، ولم يتبق من المجنبة الشرقية غير بائكة من خمسة عقود، ومن المجنبة الشرقية غير دعامتين.

وقد استخدمت الحجارة فى بعض أجزاء من مبانى المسجد، مثل الدعامات المطلة على الصحن من بلاطة المحراب وعقدها قبل تجديده، والمئذنتين والبوابات. واستخدام فى بناء الجدران خليط من الحجارة والآجر، وكان الغالب من بناء المسجد استخدام الآجر.

ومن الآجر بنيت الدعامات الضخمة داخل بيت الصلاة والمجنبات. وهى دعامات شبيهة إلى حد ما بدعامات المسجد الطولونى، فقد أدمجت فى أركانها أشباه أعمدة بنيت من الآجر كذلك، ولكن هذه الأعمدة ليست واضحة وضوح الأعمدة المندمجة فى دعامات المسجد الطولونى، كما أنها لا تنتهى مثلها بتيجان ناقوسية، واستبدلت بالتيجان فى دعامات الحاكم لوحات خشبية، أو طبال. وقد روعى فى هذه الدعامات أن يكون وسطها بارزًا بروزًا خفيفًا حتى تستند على هذا البروز أوتار خشبية تربط بين العقود، لوحة رقم (٢٤).

والدعامات التى تحف ببلاطة المحراب مزدوجة ازدواجا متعارضا، بحيث ترسم قطاعاً على شكل اللام المتوسطة. وتعلو بعض الدعامات، بين العقود، طاقات مفتوحة معقودة بعقد مدبب، لوحة رقم (٢٦ ب)، وأغلب الظن أن هذه الطاقات ليست من البناء الفاطمى، وأنها جددت على النظام القديم فى سنة ٧٠٣هـ / ١٣٠٣م، فقد ذكر المقريزى أنه كانت قد سقطت فى مسجد الحاكم بدنات كثيرة «فأعيدت وفى كل بدنة منها طاق»[(١)].

وقد بنيت عقود المسجد على نظام شبيه بعقود مسجد ابن طولون، لوحة رقم (٢٥) أى إنها مدببة ومنفوخة، فيما عدًا بعض العقود التى لم يظهر فيها الانتفاخ مع الدبب. وأغلب الظن أن هذه العقود الأخيرة جددت كذلك واتخذت هذا الشكل عند تجديدها، وأن العقود الأصيلة كانت كلها مبنية على النظام الذى يظهر الآن على العقود المتخلفة منها، لوحة (٢٣). وكانت تربط العقود بين الدعامات أوتار خشبية محلاة بنقوش زخرفية وكتابية، لوحة رقم (٢٥).

---

(١) انظر المرجع السابق، جزء ثان صفحة ٢٧٨.

كانت الدعامات ترتفع كل منها إلى علو ستة أمتار ونصف، وكانت قمة العقود تعلو عن أرضية المسجد إلى ما يقرب من تسعة أمتار ونصف المتر، وكانت فتحة العقد، أو قطره، تزيد قليلاً عن أربعة أمتار، وكانت السقف الخشبية ترتفع أحد عشر مترًا عن سطح الأرض. أما بلاطة المحراب فكان سقفها أكثر ارتفاعًا بما يقرب من ثلاثة أمتار. وقد شغلت هذه الزيادة بجدار أقيم فوق قمة العقود، على جانبى هذه البلاطة، امتد على حافته السفلى إزار من نقوش كتابية كوفية، وفتحت فوق هذا الإزار نوافذ تطل على بلاطة المحراب من جهة، وعلى سقف أساكيب المسجد من جهة أخرى، لوحة رقم (٢٢). ووضعت فى بداية هذه البلاطة فوق العقد المواجه للمحراب، فى موضع هذه النوافذ، ثلاث لوحات زخرفية جصية، تشبه النوافذ الجانبية من حيث حجمها، ومن حيث إنها معقودة بعقود مدببة، لوحة رقم (٢٢).

وكان بمسجد الحاكم ثلاث قباب، أقيمت واحدة أمام المحراب، ومازالت قائمة، وأقيمت قبة فوق كل طرف من طرفى أسكوب المحراب. وقد تهدمت هاتان القبتان، ولم يتبق من كل منهما غير مقرنص وبعض الزخارف، لوحة رقم (٢٧).

أما قبة المحراب، لوحة رقم (٢٨)، فهى ترتقى مربعًا، يتكون ضلعه الجنوبى من جدار القبلة، وتتكوّن الضلوع الثلاثة الأخرى من ثلاثة عقود مدببة، تستند كل من أطرافها الثلاثة على عمودين مزدوجين من الرخام. ولهذه العمد تيجان وقواعد على شكل المشكاة، أو الناقوس، ويدنو هذه القواعد الناقوسية قواعد أخرى حجرية مكعبة. ويدور فوق العقود وفوق جدار المحراب، تحت قاعدة القبة، إزار من نقوش كتابية كوفية، سجلت عليها آيات من القرآن الكريم. ويبلغ طول ضلع المربع الذى يكوّن قاعدة القبة ستة أمتار. وتمتطى أركان هذه القاعدة المربعة مقرنصات أربعة، معقودة كل منها بعقد مدبب. بنى وراءه المقرنص المتوج بنصف قبة كروية، بحيث يظهر العقد المدبب أمامه كأنه إطار بارز. وفتحت بين المقرنصات أربع نوافذ معقودة على نظامها، تقوم كل واحدة فى منتصف ضلع من أضلاع القاعدة. وكانت تتدلى على هذه النوافذ ستائر من غلالة منحوتة مخرّمة، لوحة رقم (٢٩). ويتكون من هذه المقرنصات والنوافذ الطابق الأول للقبة.

ويتحول هذا الطابق، بواسطة المقرنصات، من مربع إلى طابق أعلى مثمن الأضلاع، فتحت فى كل وجه من وجوهه الثمانية، نافذة كانت تتدلى عليها كذلك ستارة من الجص المخرم. وترتقى القبة هذا الطابق المثمن، شكل (٨)، وشكلها كروى. وقد استخدم الآجر فى بناء القبة وقاعدتها وطابقيها المقرنص والمثمن. وأغلب الظن أن القبة الكروية الحالية بناء حديث جرى على نظام القبة العتيقة، لوحة رقم (٢٨).

ويُستدَل من المقرنصين المتخلفين من القبتين المتطرفتين، أنهما كانتا قائمتين على نظام قبة المحراب. وأن كلا منهما كانت تحوى نفس العناصر، فكان يحد القاعدة إزار من الكتابة الكوفية، يعلوه الطابق المربع المقرنص، فطابق مثمن فتحت فيه نوافذ، فالقبة الكروية، لوحة رقم (٢٧).

وفتحت نوافذ فى الأجزاء العليا من جدران المسجد، جعل موضعها فى بيت الصلاة، نافذة مواجهة لكل بلاطة من بلاطاته، فيما عدًا البلاطتين الأولى والأخيرة حيث أقيمت القبتان المتطرفتان من أسكوب المحراب، كما فتحت نافذة عند كل طرف من أطراف أساكيب المسجد. أما فى المجنبتين والمؤخر، فقد فتحت نافذة أمام كل فاصل من فواصل أروقتها، فى الجدار المقابل له. وكانت قاعدة كل نافذة تعادل ثلاثة أذرع (١٢٦ سم تقريبًا)، وارتفاعها، أربعة أذرع (١٦٨ سم تقريبًا). وكانت النوافذ معقودة بعقد مقوّس، غير مدبب. ولم تفتح فوق المحراب نافذة فى مستوى هذه النوافذ، ولكنه فتحت بجداره نافذة صغيرة عن يمينه وأخرى مثلها عن يساره، لوحة رقم (٢١). كما أنه سبق أن ذكرنا أنه كان فوق المحراب نافذة مفتوحة فى وسط طابق القبة المقرنص. وكانت هذه النوافذ جميعًا مكسوة بستائر جصية زخرفية مخرمة. ولم يتبق منها غير عدد قليل، كما أنه لم يتبق منها نافذة واحدة كاملة، لوحة رقم (٦٦) . وكان يحيط بكل نافذة إطار من كتابة كوفية عليها آيات من القرآن الكريم، أما زخارفها فقد تنوعت، كما سنرى، وجمعت بين الزخارف الهندسية والنباتية.

ومحراب المسجد، لوحة رقم (٢١)، طاقة مجوفة متوجة بقبوة من الآجر كانت تكسوها تركيبة خشبية ويحيط بها عقد مدبب. وكان هذا العقد يرتكز على عمودين يتصدران المحراب، كما كان يحف بكل من جانبيه نافذة مكسوة بستارة جصية، وقد اندثرت زخرفة المحراب كما اندثر العمودان زخارف النافذتين، فيما عدًا الجزء الباقى من الإطار الكوفى للنافذة اليسرى.

جدران المسجد سميكة، وهى مبنية بخليط من الحجارة والآجر، فيما عدًا الأجزاء الظاهرة من البوابة الشمالية فهى من الحجارة المصقولة. وارتفاع الجدران يقرب من أحد عشر مترًا. وكان يعلوها كما كان يعلو واجهات الصحن، صف ممتد من الشرفات. لوحة رقم (٣٠). وأغلب الظن أن جزءًا كبيرًا من الشرفات المتخلفة كان قد جدد فى عهد الأمير بيبرس الجاشنكير، لوحة رقم (٣٠ أ) وخاصة حول الصحن، وأن الجزء المتبقى فوق الجدار الشمالى للمسجد هو كل ما تبقى فيه من الشرفات الفاطمية. وترسم هذه الشرفات شكل مدرجات هرمية متجاورة، بكل منها خمس درجات، يتوسطها فتحة صغيرة مدببة. وتعلو هذه المدرجاتُ إزار مخرم فتحت فيه أشكال زخرفية من مضلعات وأزهار وردية. لوحة رقم (٣٠ ب).

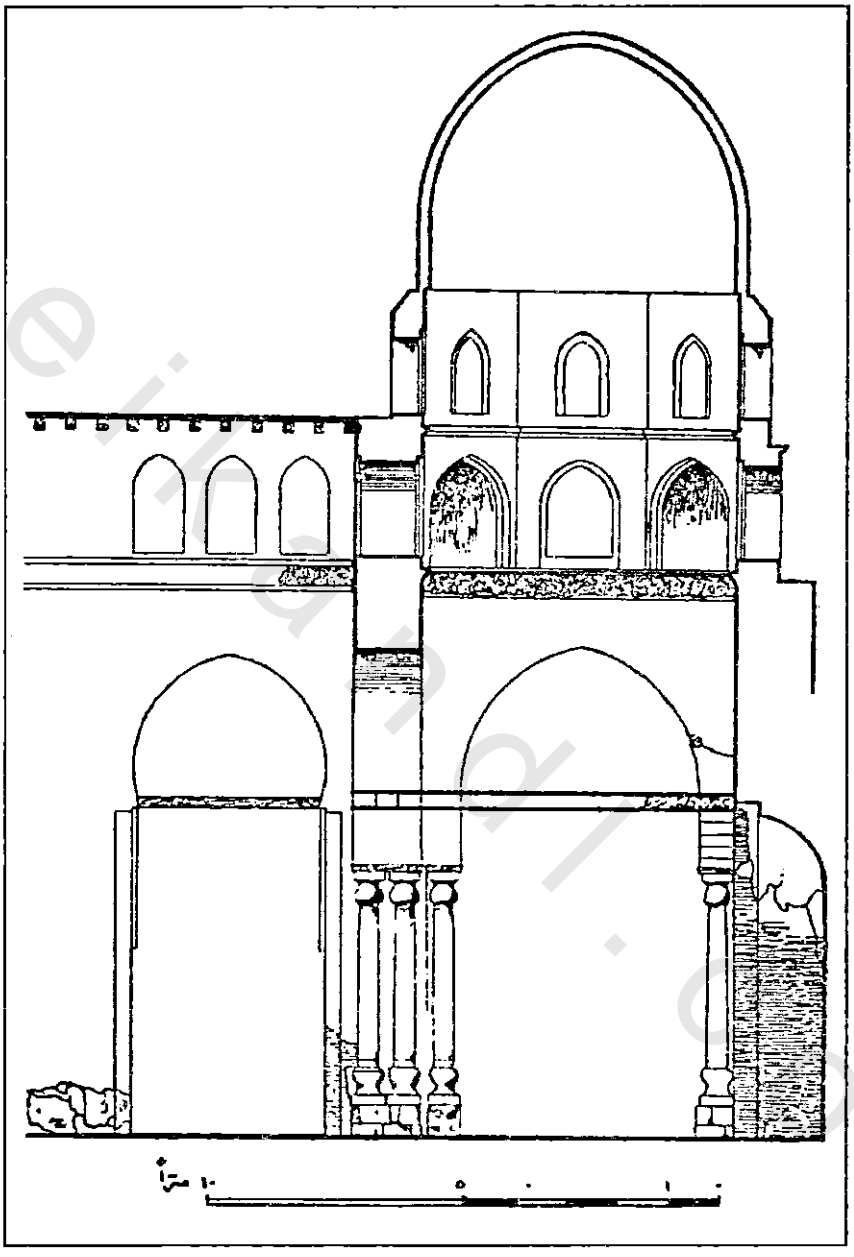

شكل (٨) – قطاع رأسي لمربعة المحراب وقبته وبلاطته ((عن مصلحة الآثار))

وتتوسط البوابة الجدار الشمالى للمسجد لوحة رقم (٣٠ جـ). وهى أقدم بوابة قائمة فى عمارة مصر الإسلامية. وهى عبارة عن مكعبين ضخمين من الحجارة المصقولة، طول كل منهما ثمانية أمتار، وعرضه ستة، وبروزه خارج سمت الجدار ستة. وبين هذين المكعبين ممر طوله ستة أمتار وعرضه ثلاثة ونصف المتر، تعلوه قبوة مقوسة أسطوانية من الآجر. ويؤدى هذا الممر إلى باب عرضه متران ونصف يؤدى هو الآخر إلى ممرٍ ثان طوله متران، وهذا الممر مفتوح على الفاصل الأوسط من الرواق الثانى من مؤخر المسجد، مقابلاً للمحراب.

وترتفع البوابة إلى مستوى ارتفاع جدران المسجد، أى أحد عشر مترا. وكانت تتوجها مثلها شرفات هرمية. وقد جددت هذه البوابة على نظامها القديم فى عهد الأمير بيبرس الجاشنكير، سنة ٧٠٣هـ / ١٣٠٤م. وعلى البوابة نقش من الكتابة النسخية يؤرخ ذلك[١]. ونقشت على الجدار الداخلى الواقع عن يمين المدخل زخار منحوتة على الحجارة عظيمة الأهمية، ونقشت على جوانب الجدران الخارجية زخار أخرى لا تقل، إن لم تزد، عنها أهمية، لوحة رقم (٧٠). وكان على البوابة لوحة رخامية نقش عيها بالخط الكوفى نص سجل عليه تاريخها[٢]. وقد زالت معالم الواجهة الغربية لهذه البوابة، أو اختفت وراء بناء القبة المعروفة بقبة أمير الجيوش بدر الجمالى.

وتنتصب مئذنتان من الحجارة على الواجهة الشمالية لمسجد الحاكم، واحدة فى الركن الغربى الشمالى، لوحة رقم (٣١)، والأخرى فى الركن الشمالى الشرقى، لوحة رقم (٣٢). وقد أسفرت الأعمال والأبحاث التى أجرتها مصلحة الآثار، (لجنة حفظ الآثار العربية سابقًا)، منذ أربعين سنة فى هاتين المئذنتين، عن معرفة تفاصيل بنيانهما وعن التأكد من أن المعطف المكعب الخارجى للمئذنة الغربية يرجع إلى عهد الحاكم نفسه، وكذلك يرجع إلى عهد الحاكم بنيان معطف المئذنة الشمالية وإن كان هذا المعطف الأخير لا يرى كله من الخارج، فذلك لأن بدر الجمالى قد أحاط به جزءا من الأسوار الجديدة التى أقامها للقاهرة. وقد بنى هذان المعطفان من الحجارة المصقولة فى سنة ٤٠١هـ / ١٠١٠م[٣]، أما المئذنتان فقد تم بناؤهما، كما رأينا، فى شهر رجب سنة ٣٩٣هـ وهما أقدم مئذنتين قائمتين على حالهما القديمة فى العمارة الإسلامية فى مصر[٤].

---

(١) بنى أمام هذه البوابة وملاصقًا لها ضريح فى عصر متأخر يخفى منظرها، وينسب هذا الضريح خطأ إلى بدر الجمالى.

(٢) يتكون النقش من ستة أسطر ونصه: «بسم الله الرحمن الرحيم، ونريد أن نمن على الذين استضعفوا فى الأرض ونجعلهم أئمة ونجعلهم الوارثين، ومما أمر بعمله عبد الله ووليه أبو على المنصور الإمام الحاكم بأمر الله أمير المؤمنين صلوات الله عليه وعلى آبائه الطاهرين، فى شهر رجب سنة ثلاث وتسعين وثلثمائة». سورة القصص آية ٥.

(٣) انظر المقريزى، «الخطط»، صفحة ٢٧٧ من الجزء الثانى.

(٤) المتفق عليه أن مئذنة المسجد الطولونى قد جددت فى عهد السلطان لاجين فى نهاية القرن السابع (الثالث عشر الميلادى). انظر «المدخل»، للمؤلف.

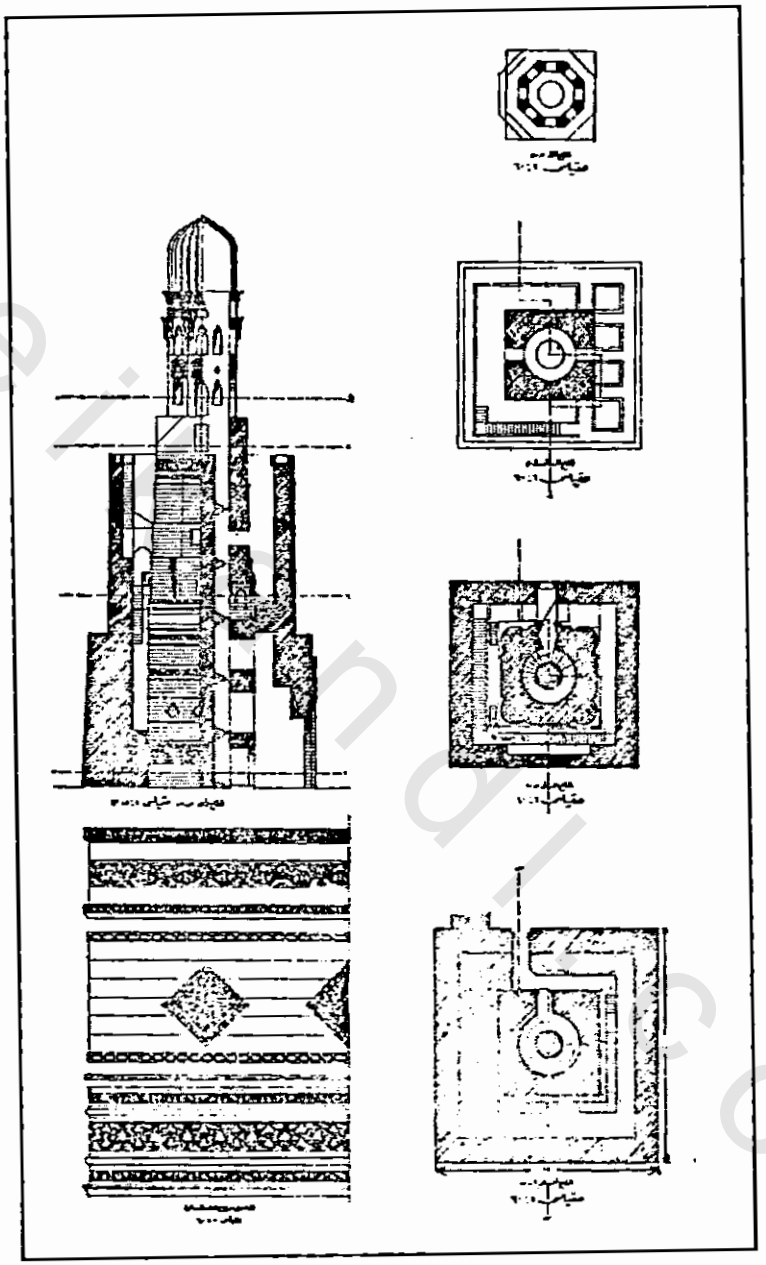

شكل (٩) – قطاع رأسى لمئذنة مسجد الحاكم الغربية و معطفها – (عن مصلحة الآثار)

ويتكون كل من هذين المعطفين، الشكلان (٩) و (١٠)، من مكعبين مدرجين، المكعب الأسفل بارز عن المكعب الأعلى، ويزداد طول ضلع المكعب الأول مرتين عن طول ضلع الثانى. كما أن قاعدة كل منهما أكثر فسحة من قمته، وذلك فى كلا المعطفين، فيبدو كل منهما هرمى الشكل، أو على الأصح انسيابيا، إذ إن جدرانهما تنحدر، وتتسع قواعدهما كلما قربت من سطح الأرض[١]. ويرتفع المعطف الغربى ٢٤ مترا فوق أرضية الشارع، ويبلغ ارتفاع الطابق الأول منه ١١ مترًا، والطابق الثانى ١٣ مترًا. أما المعطف الشمالى فيزداد ارتفاع الطابق الأول فيه مترين، وبالتالى يبلغ ارتفاعه ٢٦ مترًا عن أرضية الشارع.

والمئذنتان كالمعطفين بنيتا من الحجارة المصقولة المصفوفة صفًا متقنًا، غيرأن الجزء العلوى المثمن منهما، وهو الذى أعيد بناؤه فى عهد الأمير بيبرس الجاشنكير، قد بنى من الآجر. وظهر أن المئذنة المحصورة داخل المعطف الغربى مربعة القاعدة، مكعبة مثمنة البدن، فى حين أن زميلتها المحصورة داخل المعطف الشمالى أسطوانية مستديرة البدن، وإن كانت قائمة على قاعدة مربعة، شكل (١٠)[٢].

---

(١) طول كل ضلع من القاعدة ١٦ مترًا بالنسبة لمعطف المئذنة الشمالية و ١٧ مترًا بالنسبة لمعطف المئذنة الغربية، أما طول ضلع المكعب الثانى عند نهايته العليا فهو ١٢ مترًا بالنسبة لمعطف المئذنة الأولى و ١٤ مترًا بالنسبة لمعطف المئذنة الثانية. هذا وقد ادعى (كريسويل) فى صفحتى ٨٩ و ٩٠ من الجزء الأول من كتاب «العمارة الإسلامية فى مصر» أن المعطفين لم يكونا مكعبين كاملين عند بنائهما فى عهد الحاكم وسنة ٤٠١، وأنهما لم يكونا بارزين داخل حدود المسجد فى طرفى مؤخر المسجد، وأن هذا البروز الداخلى للمعطفين يرجع إلى عهد بيبرس الجاشنكير. ولست مقتنعًا بهذا الرأى، إذ أنه لو صح هذا الادعاء، لانتفت الحكمة من بناء هذين المعطفين وهى ضرورة دعم المئذنتين بعد إتمام بنائهما، تلك الضرورة التى أدت، كما سبق أن أوضحت، إلى إخفاء زخارفهما بعد إتمام نقشها.

وفيمايلى مقاسات المئذنتين:

المئذنة الشمالية = ارتفاع المعطف ٦٠ و ٢٦ مترًا؛ الطابق الأول منه ١٢,١٠ والطابق الثانى ١٤,٢٠. ارتفاع الطوابق العتيقة من المئذنة ٢٩,٤٠ وارتفاع الطوابق المجددة ١٦,٨٠، بما فيها الطاقية (٦,٣٠). والارتفاع الكلى للمئذنة ٤٦,٢٠.

المئذنة الغربية = ارتفاع المعطف ٢٣,٩٠ مترًا؛ الطابق الأول ١١,١٠ والطابق الثانى ١٢,٨٠. ارتفاع الطوابق العتيقة من المئذنة ٢٦,٦٠ وارتفاع الطوابق المجددة ١٤,١٠، بما فيها الطاقية (٥,٣٠). والارتفاع الكلى للمئذنة ٤٠,٧٠.

وقد أخذت هذه المقاسات عن محفوظات مصلحة الآثار.

(٢) كانت إدارة حفظ الآثار العربية قد نصبت فى سنة ١٩٤٠م صقالات ومدرجات خاصة حول المئذنتين، داخل المعطفين، وأتاحت الفرصة للكابتن كريسويل لتصوير جدرانهما الخارجية ودراسة زخارفهما. وقد أفرد الكابتن كريسويل لهاتين المئذنتين بحثًا موضوعيًا مطولاً، ملأ سبع عشرة صفحة من كتابه، ونشر معه عددًا وافرًا من الرسوم الدقيقة والصور. انظر صفحات ٨٥ إلى ١٠١ من الجزء الأول من كتاب «العمارة الإسلامية فى مصر». والأشكال من رقم ٣٣ إلى ٤٣، واللوحات ٢٣ إلى ٣٢. ومن دواعى الأسف الشديد أن قسم التصوير بمصلحة الآثار (إدارة حفظ الآثار العربية سابقًا) لم يحتفظ فى محفوظاته بالأصول السلبية أو بنسخ من معظم هذه الصور.

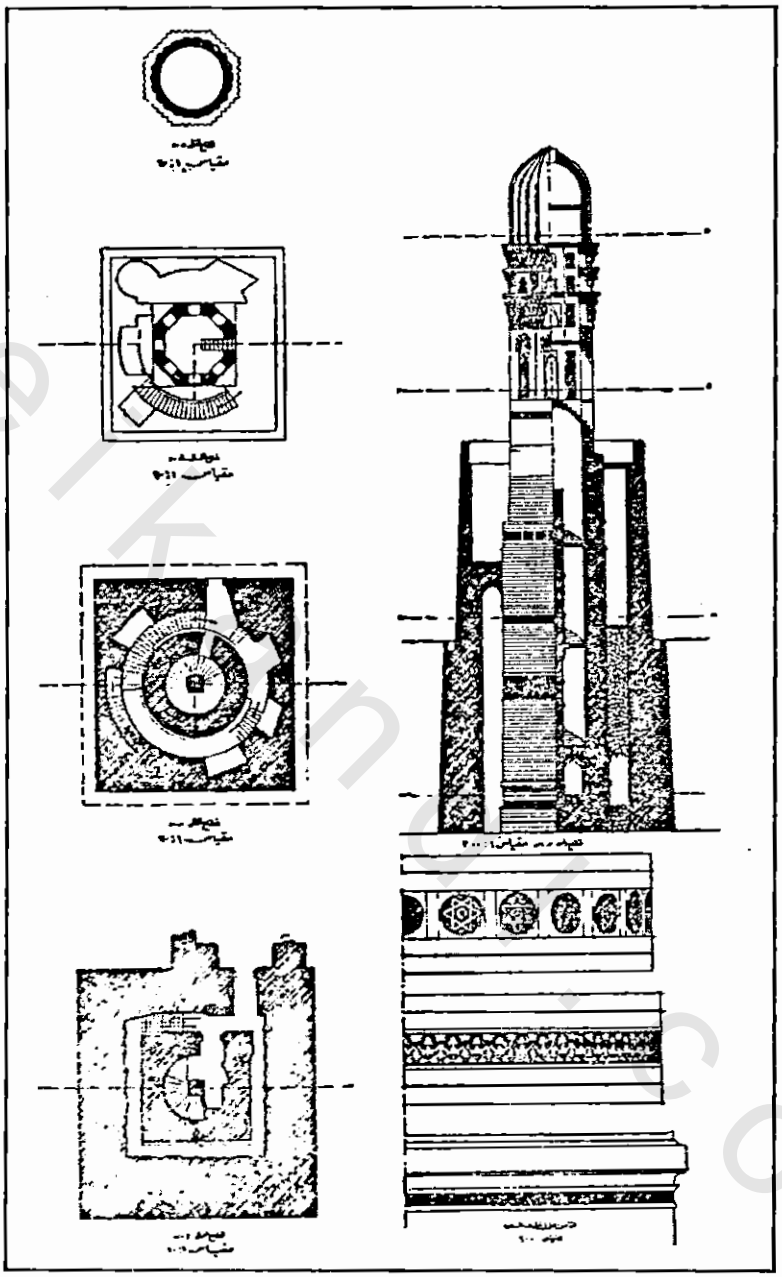

شكل (١٠) – قطاع رأسى لمئذنة مسجد الحاكم الشمالية ومعطفها. (عن مصلحة الآثار)

وللمئذنة الشمالية، لوحة رقم (٣٢)، قاعدة مربعة، هى الطابق الأول فيها، ضلعه يقرب من ثمانية أمتار، وتعلوه ثلاثة طوابق أسطوانية مستديرة، ارتفاعها ٢٦ مترًا. وينتصب القسم الأعلى للمئذنة على هذه الطوابق، وهو الذى بناه من الآجر بيبرس الجاشنكير. ويتكون هذا القسم من أربعة طوابق مثمنة، تحيط بالثلاثة العليا منها صفوف من المقرنصات، وتعلوها جميعًا قبة المئذنة أو طاقيتها. ويبلغ ارتفاع هذا القسم سبعة عشر مترًا، أى إن قمة المئذنة تعلو عن سطح الأرض ٤٦ مترًا تقريبًا.

وتتكون الطوابق الثلاثة الأسطوانية السفلى، وهى التى تعلو القاعدة المربعة، من تسع قطاعات، كل قطاع منها يتدرج فوق القطاع الأدنى، بحيث إن قطر القاعدة المستديرة الذى يبلغ سبعة أمتار ونصف المتر فى القطاع الأول ينكمش مترًا عند قمة القطاع الثامن، ويصبح ستة أمتار ونصف المتر. وتنتشر فوق الجدران الخارجية لهذه المئذنة إزارات مزخرفة، ونوافذ تحيط بها إطارات زخرفية، وأهم هذه الزخارف النقوش الكوفية المزهرة التى تمتد فى إزارات وجامات، أو تدور حول إطارات النوافذ. ولهذه المئذنة باب مستطيل، عنى ببنائه وصف الحجارة من حوله، ووضعت له عتبة مستطيلة محلاة بالزخارف، تعلوها لوحة من حجمها محلاة بنقوش من كتابة كوفية بديعة سطرت عليها آية قرآنية كريمة[١].

أما المئذنة الغربية، لوحة رقم (٣١)، فيبلغ طول ضلع قاعدتها المكعبة سبعة أمتار ونصف المتر، ويبلُغ ارتفاع قمتها عن سطح الأرض ٤١ مترًا تقريبًا. وهى تتكون من ثمانية طوابق. الطابق الأول قاعدة مربعة عظيمة ارتفاعها ١٤ مترًا، ترتقى فوقها خمسة طوابق إلى علو ٢٦ مترًا فوق سطح الأرض، وهى طوابق مثمنة، لا مربعة، وتتدرج فى ارتفاعها تدرجًا ملحوظًا، إذ تنكمش القمة فوق الطابق الخامس منها، عن القاعدة عند بداية الطابق المثمن الأول، بما يزيد عن متر وربع المتر.

وقد امتلأت مسطحات الجدران الخارجية لهذه المئذنة بالزخارف، وخاصة حول طابقها الأول المربع، وعليها إزار بديع من كتابة كوفية يبلغ ارتفاعه مترًا تقريبًا[٢]، لوحة رقم (٧٩ أ). وتعلو بقية المئذنة هذه الطوابق الستة الحجرية، وهذا القسم الأعلى من المئذنة هو الذى بنى من الآجر فى عهد بيبرس الجاشنكير، ويبلغ ارتفاعه أربعة عشر مترًا فوق هذه الطوابق، ويتكون

---

(١) الآية الكريمة ﴿وقل رب أدخلنى مدخل صدق﴾، سورة الإسراء، (١٧) آية ٨٠. ويلاحظ أن حرفاً زائدًا، هو الألف، وضع خطأ فى النقش بين لفظى ﴿وقل﴾ و ﴿رب﴾.

(٢) يقرأ فى نص هذه الكتابة: رحمة الله وبركاته عليكم.. إنه قد جاء أمر ربك.. مما أمر بعمله عبد الله ووليه المنصور أبو على الإمام الحاكم بأمر الله أمير المؤمنين.. فى شهر رجب من سنة ثلاث وتسعين وثلثمائة.

من طابقين مثمنين، التف حول الطابق الثانى منهما صفان من المقرنصات. وأخيرًا تعلو هذين الطابقين قبة المئذنة أو طاقيتها. ويلاحظ أن هذه المئذنة أقل ارتفاعًا من المئذنة الشمالية، إذ أن قمتها تدنو خمسة أمتار عن مستوى قمة هذه المئذنة الأخيرة.

٣

زخرفة المسجد العتيقة

كان مسجد الحاكم يزخر بالزخارف، فقد كانت الأوتار التى تربط الدعامات تحت أطراف العقود تتكون من لوحات خشبية تجرى عليها زخارف نباتية منوعة. وكانت النوافذ المفتوحة فى جدران المسجد القبلية والشرقية والغربية، مكسوة بستائر جصية مزخرفة. وكذلك كانت بقاعدة القباب وبجانبى المحراب نوافذ وطاقات حليت بالزخارف. وكانت بوابة المسجد الشمالية وأبوابه الجانبية محلاة وكذلك بالنقوش الزخرفية. وكانت تدور حول الجدران الخارجية للمئذنتين ونوافذهما وأبوابهما أشرطة وإطارات مختلفة الأشكال والزخارف. وكان يمتد تحت سقف بيت الصلاة فى المسجد، فوق العقود والجدران، إزار من الخط الكوفى المزهر، نقشت عليه سور كاملة من القرآن الكريم، كما كان هذا الإزار يمتد كذلك تحت القواعد المربعة للقباب الثلاثة، وحول بعض النوافذ. وأغلب الظن أن إزارا خطيًّا كان يدور حول الصحن وأن آيات القرآن الكريم كانت معروضة فى أجمل مظهر على جماهير المصلين، داخل بيت الصلاة فوق عقود أساكيبه وبلاطاته، وخارج جدرانه، فوق عقود الأروقة والصحن[1]. وكان يعلو جدران المسجد الخارجية وجدران الصحن إطار ممتد من الشرفات. فكأنه لم يكن يخلو جزء بمسجد الحاكم من الزخارف.

وكما تعددت مواضع الزخارف، تعددت أنواعها وأشكالها، فهى زخارف خطية وهندسية ونباتية، منفردة أحيانًا، مجتمعة أحيانا أخرى. وتتعدد الأشكال فى كل نوع من هذه الأنواع. وكذلك تتنوع أشكال الإطارات التى احتوتها، فهى إما مستطيلة أو مربعة أو معينة أو معقودة.

وقد تبقت من هذه الزخارف أجزاء عديدة تشهد بالعناية الفائقة التى بذلها «المزوقون» فى زينة المسجد. وإذا كانت زخرفة المحراب قد اندثرت، فيما عدا جزءًا من إطار الطاقة اليسرى، فإنه يستدل من الأجزاء المتبقية من قبة المحراب أن الزخارف كانت تكسوها من

---

(١) يتبين من موضع المساحات التى كانت منقوشة بالآيات القرآنية فى مسجد الحاكم أن مجموع طولها يزيد عن أربعة آلاف متر.

الداخل والخارج، كما كانت تكسو قبتى أسكوب المحراب المتطرفتين. ومن ذلك طاقة بديعة فى إحدى هاتين القبتين، وطاقتان معقودتان فى قاعدة قبة المحراب تحشوهما زخارف جصية، لوحة رقم (٧٤). وقوام هذه الزخرفة سيقان وأوراق نباتية، امتدت انحناءاتها حول مجموعة رأسية وسطى، تفرعت منها وتشابكت معها، فى رقة وتناسق وتقابل. وتعددت فصوص الأوراق وشحماتها، ورسمت أشكالاً منوعة من الخطوط والأقواس. وأحاط بكل طاقة إطار من شريطين متشابكين.

وقد أشرت فيما سبق إلى النوافذ التى كانت مفتوحة فى جدران المسجد، وكانت تتدلى عليها ستائر جصية مفرغة. ومن هذه النوافذ نافذتان فى جدار القبلة، عن يسار المحراب، لوحة رقم (٧٥). وقد تجمعت فى مثل هذه النوافذ أنواع الزخارف العربية الثلاثة، الخطية والهندسية والنباتية. ويتضح من تحليل الزخارف فى هاتين النافذتين أن عنصرهما الرئيسى يتكون من ساق نباتى تخرج منه ورقة ذات شحمتين، وأن هذا الساق يتعرج وهذه الورقة تنحنى، وأنه ينتج من هذا التعرج والانحناء تعادل وتقابل، وتشابك وانفصال، فى حركة مستمرة تبدو متحررة من أى قيد، وإن كانت فى الحقيقة تخضع - من جهة - لإطارات هندسية ترسم فى النافذة الثانية أشكالاً نجمية، وتتفرع - من جهة أخرى - حول محور رأسى فى وسط الستارة[1]. أما نوافذ الجدران الأخرى فقد اقتصرت على تشابك الخطوط الهندسية، من دوائر ومستقيمات، وروعى أن ينتج من هذا التشابك أشكال نجمية رباعية أو سداسية الأطراف لوحة رقم (٦٦).

وانتشرت الزخرفة على جانب بوابة المسجد التى امتدت عليها طاقتان معقودتان، حشى عقداهما وخوصراهما بسيقان نباتية متعرجة تتفرع منها وريقات ذات فصين أو ثلاثة. وتتكون زخرفة الخوصر، أو حشوة العقد، من مجموعة نظمت فيها هذه العناصر النباتية تنظيما تَماثُلِيًّا[2]، لوحة رقم (٦٨ أ). ويجرى تحت مستوى أطراف العقدين على طول هذا الجانب

---

(١) نشر (فلورى) بحثًا وافيًا عن زخارف مسجد الحاكم وهو يعتقد أن القسم الأوسط من النافذة الأولى، قد جدد فى القرن الثامن بأسلوب مغربى، وهذا يبدو واضحًا من الخط الكوفى الذى يقرأ فيه «الملك لله» مكتوبة مرتين على هيئة متقابلة عكسيًا. انظر صفحة ٢١ من كتاب (فلورى)، «زخارف مسجد الحاكم والأزهر».

(٢) التنظيم التماثلى (symmetry) معناه أن المجموعة الزخرفية يتوسطها محور رأسى تقابل الزخارف عن يمينه نظائر لها عن يساره تقابلا عكسيًا، أى إن النصف الأيمن من المجموعة يرسم صورة متعادلة معكوسة للنصف الأيسر. غير أن الفنان قد أدخل فى حشوات بوابة الحاكم تحويرًا فى تعرجات السيقان وانحناءات الأوراق، تحويرًا يعبر عن حرية التصرف وتكامل الإنشاء الزخرفى دون أن يخل بمظهر التماثل، وسنرى فى الفصل الخاص بمميزات الزخارف الفاطمية من هذا الكتاب صلة نظرية التماثل هذه بظاهرة التوشيح العربى (arabesque)، التى ابتدأت معالمها تظهر فى زخرفة الأزهر، وتتضح فى زخرفة الحاكم. والتى أصبحت فيما بعد ظاهرة زخرفية عالمية.

شريط نقشت عليه زخرفة تتكون من خطين متداخلين يرسم تداخلهما مضلعات سداسية وثمانيّة، ويدنو هذا الشريط شريط آخر نقش عليه صف من التواريق النخيلية المبسطة، ويمتد كذلك على طول هذه الواجهة إزار عريض زخرفي من ثلاثة شرائط، يتكون الوسيط فيها من مجموعة زخرفية متماثلة، قوامها ورقة من ثلاثة فصوص منحصرة في عقد مثلث الفتحات ومتصلة بساقين يتفرع أحدهما يمنة والآخر يسرة، وينفذ كل منهما إلى إطار مسدس، ثم ينساب منه فيتولد عنه شكل من التوريق النخيلي الذي ينتصب بين عقدين من العقود ثلاثية الفتحات. أما الشريطان المتطرفان، الممتدان فوق هذا الشريط وتحته، فإن عنصرهما الزخرفي متطابق، ويقتصر على ساق ممتدة ترسم حلقات متلاصقة تنبثق في داخلها وريقة من فص واحد.

وقد نقش في وسط كل طاقة من الطاقتين إطار على شكل معين زخرفي من خطوط هندسية ترسم مستطيلات ودوائر، وتنحصر في هذا الإطار مجموعة زخرفية من خطوط هندسية كذلك ترسم مربعين متداخلين، تنتهي أطراف كل منهما بحلقات، ويتكون من تداخلهما نجمة من ثمانية أطراف.

ولاشك في أن زخارف المئذنتين المختبئة وراء المعطفين هي أكثر زخارف المسجد إبداعًا وتنوعًا، واحتفاظًا بطابعها العتيق[1]. وتحتوي المئذنة الغربية الشمالية على عشرين إزارًا منقوشة على طوابقها الثمانية، أما المئذنة الشمالية الشرقية فتحتوي على ستة إزارات تمتد حول طوابقها الأربعة كما تحوي مجموعة من النوافذ المنقوشة إطاراها وستائرها المخرمة[2].

وإني أرجو أن تتاح الفرصة مستقبلاً لدراسة زخارف هاتين المئذنتين دراسة تحليلية وافية، وإفراد بحث عنها. ويكفيني — في حدود هذا القسم من الكتاب — أن أكتب عن مظاهرها العامة، وسأعود فيما بعد إلى الإشارة إليها، في الفصل الثامن المخصص لدراسة مميزات الزخارف الفاطمية.

وأهم عنصر من عناصر الزخارف في المئذنتين هو عنصر التوريق والتزويق، وفيه أكثر من عشرة أشكال مختلفة. أبسطها ذلك الشكل الذي التقينا به على بوابة المسجد والذي يقتصر على ساق نباتية تجري منحنية في حلقات متلاصقة تنبثق في داخلها وريقة من فص واحد. ثم نلقى في شكل آخر أن الساق تزدوج، وتتشابك تجعداتها بحيث تتكون منها حلقات تضم كل منها

---

(١) إذا كان من حسن الحظ أن أقيم المعطفان حول المئذنتين فحفظا الزخارف من التعرض لعاديات الزمن التي أصابت بقية زخارف المسجد، فإنه من سوء الحظ أن تظل هذه الروائع الفنية في مخبئها، وألا تيسر مشاهدتها ودراستها بتنظيف الفراغ الكائن بين المعطفين والمئذنتين وإعداده إعدادًا ملائمًا، دون الإخلال بالمعالم الأثرية للبناء.

(٢) يبدو لي أن زخارف المئذنة الشمالية الشرقية لم تكتمل، وأنه صرف النظر عن إتمامها عند الشروع في بناء المعطف المحيط بها. وتمتد الزخارف في المئذنتين على مسطحات يزيد طولها عن ثمانمائة متر.

فى داخلها وريقة من فص واحد. وفى شكل مبسط آخر تمتد الساق متجعدة وتلقى ورقة من فصين، مرة عن يمينها ومن فوقها، ومرة عن يسارها ومن تحتها. ونرى الساق فى موضع آخر ترسم انثناءات متشابهة، ولكنها تلقى فيها بورقتين متقابلتين تجمعهما برعمة أو بتلة، أو تفصل بينهما، ونجد الورقتين تارة قائمتين فوق هذه الانثناءات وتارة متدليتين تحتها.

وتبدأ السيقان والأوراق تتطور فى أشكال أخرى إلى مجموعات إنشائية من التواريق النخيلية المحصورة فى مربعات أو مستطيلات، اللوحتان رقما (٧١) و (٧٢) ثم تنتهى بأشكال منسقة من التزاويق، داخل خطوط هندسية متشابكة ترسم نجومًا سداسية الأطراف، أو عقودًا ثلاثية الفتحات، تمتد السيقان حولها متعرجة متعاشقة متداخلة، وتتراوح الأوراق فيها وتنثنى، فى خفة ولين، كأنها تزهو بفصوصها المثنى والثلاث. وفى مجموعة من تلك المجموعات الإنشائية تتطور الورقة الثلاثية إلى ورقة منبسطة من أوراق شجرة العنب[1].

وإلى جوار هذه الزخارف النباتية تمتد إزارات وإطارات أخرى نقشت فى أشكال هندسية من خطوط متداخلة ترسم مضلعات سداسية الزوايا، أو مستطيلات مستديرة الأطراف أو دوائر وأنصاف دوائر مفرغة، أو معينات من أربعة فصوص، أو نجوم ذات خمسة رؤوس. ونلقى فى إطار يحيط بقاعدة الطابق الرابع من المئذنة الشمالية الشرقية مجموعة من الدوائر التى رسمت بداخلها تشكيلات من الرسوم الهندسية المتداخلة، كما نلقى فى منتصف الطابق الثانى من المئذنة الغربية الشمالية، معينين بديعى التنسيق، لوحة (٦٧). وترى فيهما الخطوط المزدوجة ملتفة التفافًا يرسم أشكالاً معقدة.

أشرت فيما سبق إلى وفرة النقوش الخطية التى كانت تزين المسجد. وقد تبقى من هذه النقوش قليل جدًا مما كان فى داخل المسجد وحول صحنه. ومازالت ترى أجزاء من الإزار الذى كان يحيط ببلاطة المحراب وبعض الأساكيب، وأجزاء أخرى تحت قاعدة قبة المحراب، وجزء من إزار القبة المتطرفة فى أسكوب المحراب. وكذلك تبقى جزء من إزار البوابة. وأجزاء متفرقة حول الطاقات الزخرفية وبعض عتبات الأبواب وإطارات نوافذ المئذنة الشمالية. وتبقت كذلك معظم الإزارات الأربعة المنقوشة حول المئذنتين، اثنان حول المئذنة الغربية الشمالية، يقع الأول على ارتفاع ثمانية أمتار من سطح الأرض ويمتد الثانى فوقه على ارتفاع أربعة أمتار منه، والإزار الثالث يحيط بمعطف هذه المئذنة، أما الإزار الرابع فإنه يحيط بالمئذنة الشمالية الشرقية على ارتفاع عشرة أمتار من أرضيتها.

---

(١) انظر الرسوم التى نشرها (كريسويل) فى صفحات ٩٥ و ٩٧ و ٩٨ فى الأشكال ٣٤ إلى ٤٣ وكذلك اللوحات ٢٣ إلى ٣٢ من الجزء الأول من كتاب «العمارة الإسلامية فى مصر».

وقد اختلف أسلوب الكتابة والنقش فى هذه الإزارات، وإن كانت جميعًا تتبع نوعًا واحدًا هو الخط الكوفى المزهر. وقد صيغت الحروف فيها بارزة مسطحة فيما عدًا الإزار الثالث المحيط بالمعطف فإن الحروف فيه استدار بروزها كأنصاف العصى، وروعى أن تكون الحروف المستديرة، أو المغلقة مثل العين والفاء والميم والواو والهاء المتطرفة، مقوّرة لا مفرغة، وأن تحتل برعمة مكان التفريع منها[1]. وقد تناثر التزاهير فوق هذه الحروف وفى الفراغات التى تتركها أحيانا الحروف الممتدة مثل السين والياء، لوحة رقم (٧٩ أ).

أما فى الإزارات الأخرى فقد احتل التزهير مكانة بارزة، ولم يترك فراغًا من غير أن يملأه. وتظهر الروح الزخرفية واضحة قوية فى هذه اللوحات الفنية التى استطاع صانعوها أن ينسقوا أبدع تنسيق بين جمال الحروف الكوفية ورقّة الزخارف النباتية، وأن يراعوا فى ملء الفراغات عدم الإخلال ببروز الحروف ووضوحها، لوحة رقم (٧٨).

ولاشك فى أن الإزارين الكبيرين فى المئذنتين جديران بالإعجاب[2]، لوحة رقم (٧٩). وقد كتب (فلورى) عن إزار المئذنة الشمالية أنه «إحدى البدائع الفنية التى أنتجها الفن الإسلامى فى الحقل الذى اختص به، وهو حقل الزخرفة الكتابية»[3]. وسأدخر الكتابة عن عناصر هذا الإبداع للقسم الثالث من الفصل الثامن الخاص بمميزات الزخرفية الفاطمية.

---

(١) يرجع (فلورى) انتماء هذا الإزار إلى عصر بدر الجمالى لتشابه الأسلوب فيه إلى حد ما مع أسلوب الخط على أسوار القاهرة التى بنيت فى سنة ٤٨٠ (١٠٨٧م)، وقد أخذ (كريسويل) بهذا الرأى. انظر (فلورى)، «زخارف مسجدى الحاكم والأزهر»، صفحة ١٩ وكتابه «الأزارات الكتابية الإسلامية»، صفحة ١٠:

Flury (Samuel), *Islamische Schristbander, Amida- Diarbeker, XI Jahrhundert*, Basel-Paris, 1920.

وانظر (كريسويل) «العمارة الإسلامية فى مصر»، جزء أول، صفحة ٩٢.

ولست أرى مبررًا لهذا الترجيح، خصوصًا وأن التزهير فى كتابة الأسوار ضئيل بالنسبة لتزهير إزار المعطف فى مسجد الحاكم، وأنه من الواضح أن الخط فى هذا الإزار قد نقش بعناية ورقة لم يصل الخط فى الأسوار إلى مستواها، والأصح أن كتابة إزار المعطف التى نقشت فى سنة ٤٠١هـ قد اتخذت أنموذجًا اتبعه الخطاطون فى سنة ٤٨٠هـ عند نقش كتابة الأسوار.

(٢) يبلغ طول الحروف فى إزار المئذنة الغربية ما يقرب من ٨٠ سنتيمترًا وفى إزار الشمالية ما يقرب من ٧٠ سنتيمترًا، أما الإزار الأولى فى المئذنة الغربية وإزار معطفها فيزيد الطول فيهما عن أربعين سنتيمترًا. ويتراوح طول الحروف فى بقية الازارات بين ٢٠ و ٣٠ سنتيمترًا.

(٣) انظر صفحة ٤٦ من كتاب «زخارف مسجدى الحاكم والأزهر».